النَّظريةُ البيانيّةُ في كتابِ سيبويهِ

أ . م . د حسين علي هادي المحنّا
جامعة بابل / كلية العلوم الإسلامية

أ . م . د أحمد كاظم عماش
جامعة بابل / كلية العلوم الإسلامية

مقدمة:

الحمد لله قبل الإنشاء وبعد فناء الأشياء والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وعلى صحبه وآله الأطهار النجباء أمّا بعد : فكتاب سيبويه ليس كتابًا في النحو بالمعنى التقليدي فقد درس مؤلفُه ظواهرَ الاستعمال ، وهو أول أثر نحوي باقٍ يمثل نضج الفَهم النحوي ، ويُعنى بتمييز التراكيب وكشف خصائصها وتواؤمها مع معانيها .
ونجد أنَّ سيبويه عند رسم ملامح النظرية البيانية ووضع قواعدها قد راعى حال المخاطب وتمثَّل مبدأ الفهم والإفهام ومراعاة مقتضى الحال وعدم الإلباس .
لقد أقام سيبويه مفهوم النظم وائتلاف الكلام في النظام اللغوي على مراد المتكلم وعلم المخاطب ، ونلحظ عناية سيبويه بفهم المخاطب بجعل مدار الكلام في تأليف العبارة وما فيها من حسن أو قبح ، فوَضع الألفاظِ في غير موضعها دليلٌ على قبح النظم وفساده ويتمثَّل المخاطب ذلك بحسّه ويستشعره بذوقه .
ويفزع سيبويه في البيان عن الفرق بين معنيين إلى موقف المتكلم وحين يحلل بعض الجمل لغويًا يقبلها أو يرفضها ويحتكم في هذا إلى السياق .
لقد اهتمَّ سيبويه بالتراكيب ومباني الألفاظ واختلافها باختلاف معانيها ، فهو لا يقتصر على النحو الشكلي الذي يهتم بأواخر الكلمات إعرابًا وبناءً، وإنَّما أراد بالنحو انتحاء سبيل العرب في بنية ألفاظها وأساليبها وما يستتبعه المقام ومقتضى الحال ، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة، وثلاثة مطالب كشفنا في المطلب الأول عن مرتكزات النظرية البيانية، وجاء المطلب الثاني ليبيّنَ أركان الخطاب، أمّا المطلب الثالث فتحدثنا فيه على مفهوم الإعراب عند سيبويه، وخاتمةٍ تضمّنت أهمَّ نتائج البحث .

مدخل :
تمكَّنَ سيبويه من وضعِ الأسسِ لنظريةٍ أسميناها (النظرية البيانية) ، ونقصد بالنظرية الآراء التي تحاول تفسير الوقائعَ العلمية والظنيّة، وهي قضيةٌ تُثبَتُ صحتُها بحجةٍ، أو دليلٍ، أو برهان، وحاول سيبويه الشرح والتوضيح النظري للحقائق التي أثبتَها ودعَمَها بالأدلةِ والشواهد، ونعني بالبيانية من بانَ الشيءُ وبَيَّنَ وأبانَ واستبانَ ، أي : انكشفَ وظَهَرَ، والبيان : ((ما تبَيَّنَ بِهِ الشيءُ مِنَ الدلالةِ وغيرِها، وبانَ الشيءُ بَيانًا اتَّضَحَ فَهُوَ بَيّنٌ)) .(١)
ويمكننا القول : إنَّ النظريةَ البيانية نظريةٌ توصيليةٌ تهدفُ إلى توضيحٍ وتبيينٍ ما هو مبهم، وتوصيله إلى المتلقي .
لقد أقام سيبويه نظريته البيانية على العناصر نفسها التي قامت عليها نظريةُ التوصيل، وهذا التشريعُ الذي وضع أركانه سيبويه وأراد به فكَّ الشفرة (اللغة الوسيطة المتعارف عليها بين الكاتب والقارىء) (٢) بطريقةٍ بيانيةٍ نجدُ صداه في المشهد اللساني الحديث، ولاسيّما عند رومان جاكوبسون في كتابه قضايا الشعرية، ونظريته التي تقوم على ((أنَّ كلَّ سيرورةٍ لسانيةٍ أو فعلِ توصيل لفظي متكوّن من عوامل تعملُ متكاتفة لتحقيق ذلك الفعل التواصلي)) (٣)، ويُعبّر جاكوبسون عن ذلك بقوله : ((إنَّ المرسِلَ يوجّه رسالةً إلى المرسَل إليه ولكي تكون الرسالة فاعلة فإنّها تقتضي بادىء ذي بدء، سياقًا تُحيلُ عليه، سياقًا قابلًا لأن يدركه المرسَل إليه، وهو أما أن يكون لفظيًّا أو قابلًا لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالةُ بعد ذلك سننًا مشتركًا كليًّا أو جزئيًّا بين المرسِل والمرسَل إليه ... وتقتضي الرسالةُ أخيرًا، اتّصالًا أي قناة فيزيقية وربطًا نفسيًّا بين المرسِل والمرسَل إليه اتّصالًا يسمح بإقامة التواصل والحفاظ عليه)) . (٤) ومثَّلَ لعناصر نظريته التي لا تستغني عنها عمليةُ التوصيل بالرَّسمة الآتية :

سياق
مرسِل رسالة مرسَل إليه
اتصال
سنن (شفرة)

وهذا ما رصدناه في مدونة سيبويه فعناصر نظرية التوصيل حاضرةٌ فيها فضلًا عن عمل سيبويه في فكِّ الشفرة وبيانها ليوصلها بكلِّ يسرٍ وسهولة، وجاءت تسميةُ الشفرة مترجمة عن المصطلح الأجنبي (code) ، وهي في معناها الخاص تعني ((مجموع السنن، أو الأعراف التي تخضع لها عمليةُ إنتاج الرسالة وتوصيلها، فالشفرة نسقٌ من العلامات يتحكّم في إنتاج رسائل يتحدد مدلولُها بالرجوع إلى النسق نفسه وإذا كان إنتاج الرسالة هو نوعٌ من التشفير فإنَّ تلقي الرسالة وتحويلها إلى المدلول هو نوعٌ من فكِّ الشفرة عن طريق العودة بالرسالة إلى إطارها المرجعي في النسق الأساسي)) (٥) ، والشفرة اللغوية تتكوّن من النظام الصوتي في حالة الكلام المنطوق، ومن النظام المرئي في حالة المكتوب، ويشير مصطلح الشفرة إلى استعمال اللغة في الحديث عن اللغة، مثلما يحدثُ عندما نستعمل اللغةَ العربية _مثلًا_ للحديث عن اللغة العربية نفسها، فتصبح

اللغة التي نتحدَّث بها شارحةً للغةِ التي نتحدَّث عنها . (٦) ووظيفة الشفرة هي الحفاظ على الترابط الذهني بين المرسِل والمرسَل إليه (٧) ((ففي كلّ مرة يرى فيها المرسِل، أو المرسَل إليه ضرورة التأكد ممّا إذا كانا يستعملان السننَ نفسَها، فإنَّ الخطابَ يكون مركّزًا على السنن، أي أنَّهُ يشغلُ وظيفةً ميتالسانيّة أو(وظيفة شرح))) . (٨)

ويظهر دورُ الوظيفة اللغوية الشارحة في توضيح ما هو مبهم سواءٌ أكان هذا الإبهام في كلمةٍ أم في جملةٍ أم في عبارةٍ، وأن يتأكّد أحدُ طرفي التخاطب من أنَّهُ يستعمل والطرف الآخر النمطَ اللغويَّ نفسَه، فالتخاطب يقوم على التفاهم والتواصل . (٩) ((وتتجلى الوظيفةُ اللغوية الشارحة في تعابير معيّنة مثل : أعني بذلك، وأقصد بهذا، وماذا تقول، وأتفهم ما أعني قوله، والمقصود بذلك)) . (١٠)

ونلحظ أنَّ الوظيفة اللغوية الشارحة في نظرية سيبويه قد تجلت في ضوء آلياتٍ استعان بها من نحو : أي التفسيرية، فقد وردت في اثنين وستين ومئتي موضعًا، وتعابير من نحو : (إعلم) التي وردت بما يزيد على ثلاثمئة موضعًا، و(الا ترى) في تسعة وستين وثلاثمئة موضعًا، و(سترى) في ثمانية وأربعين موضعًا، و(قولك) في أربعة وثمانين وسبعمئة موضعًا، و(تقول) في سبعة وسبعين وستمئة موضعًا، والجذر (عرف) في سبعة وثلاثين موضعًا، والجذر(فسر) في ستة وأربعين موضعًا .

والشفرة لها في أوّل أمرها صلةٌ بمرسلها، فهي تقدّم له هياكلَ لغوية جاهزة، أو يجهّزها هو بحسب ذوقه، ولها علاقةٌ بالمرسَل إليه كذلك، فمنها يتكشّف للمرسَل إليه مضمون الرسالة وغايتها، فالمرسَل إليه يعيد بناء المعنى انطلاقًا من الإشارات التي تحمل كلُّ واحدة منها عناصرَ من المعنى . (١١)

المطلب الأول : مرتكزات النظرية البيانية :

أراد سيبويه أن يؤسس لنظرية البيان العربي، فلا مَعدى من القول : إنَّهُ من أوائل البيانيين العرب، وهم كلُّ مَن أنجبته الثقافة الإسلامية العربية، فنراه في مستهلّ مدونته يسعى إلى تسييج الخطاب العربي، وتحليله وتفسيره، في ضوء إدراك أهمّ العناصر المكونة له، ومِن ثَمَّ محاولة الظفر بالمعاني من جهة، ومن جهةٍ أخرى كيفية إيصالها إلى المخاطَب، مبيّنًا أنَّ أقسام الكَلِم في العربية اسم وفعل وحرف، إذ قال : ((فالكَلِم: اسمٌ، وفِعْلٌ، وحَرْفٌ جاء لمعنًى ليس باسم ولا فعل. فالاسمُ: رجلٌ، وفرسٌ، وحائط. وأما الفعل فأمثلة أُخذتْ من لفظ أحداث الأسماء، وبُنيتْ لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع)) .(١٢)

وأشار إشارةً لطيفةً إلى أنَّ التركيبَ البيانيّ المألوف يكون على :

فعل فاعل مفعول به

وهو النَّمَطُ الطبيعي للكلام العربي، فإذا حَدَثَ تغيُّرٌ في هذا النمط، فإنَّ هناك غاية وعلَّة، وهذا ما فَطَنَ إليه سيبويه، إذ قال : ((فإن قدمتَ المفعولَ وأخَّرتَ الفاعل جرى اللفظُ كما جرى في الأوّل، وذلك قولك: ضَرَبَ زيدًا عبدُ الله؛ لأنّك إنَّما أردت به مُؤخّرًا ما أردت به مقدَّمًا، ولم تُرد أن تَشغلَ الفعل بأوَّلَ منه وإنْ كان مؤخرًا في اللفظ. فَمن ثَمَّ كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدَّمًا، وهو عربيٌّ جيِّد كثير، كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يُهمّانِهم ويَعْنِيانهم)) (١٣) ، فنلمحُ علَّةَ بيان المُقَدَّم، وأهميته، والعناية به، مِن لَدُن المتكلِّم، وفي هذا تأسيسٌ لنظرية إرادة المتكلِّم، وقصديته وهو مَلمَحٌ تداوليٌّ من جهة، ومن جهةٍ أخرى مُعطًى إبلاغي يُلاطِفُ نظرية التلقي اللسانية الحديثة، ومن أبرز مرتكزات النظرية البيانية:

١ ــ المصطلحات البيانية :

أصَّلَ سيبويه لنظريته البيانية في جميع مفاصل مدونته، ويلاحظ القارىء للكتاب استعماله لمصطلحاتٍ بيانية ميَّزت خطابه، فقد استعمل مصطلحاتٍ من الجذر (ب،ي،ن) بما يربو على مئتي موضع، ومن ذلك قوله : ((وكذلك ثقيف إذا حولته من هذا الموضع قلت ثقيفيٌّ. وقد بيّنا ذلك فيما مضى)) . (١٤) ، وقوله : ((وقد يدخل أفعل على فعلان كما دخل فعلٌ عليهما فلا يفارقهما في بناء الفعل والمصدر كثيرًا، ولشبه فعلان بمؤنث أفعل. وقد بينا ذلك فيما ينصرف وما لا ينصرف)) . (١٥) ، والجدول الآتي يبيّن ذلك :

اللفظ	عدد المرات	اللفظ	عدد المرات	اللفظ	عدد المرات
بَيّنا	٤٩	بيّنتُ	١٧	بيَّنوا	٥
تُبَيّن	٣٢	سيُبيّنُ	١	يُبَيّنوا	٤
بُيِّنَ	٢١	أبان	١	نُبيّن	٢
بَيَّنَ	١٦	بَيّن	٣	ليُبَيّنوا	٤
بيان	١٧	بيانه	٢	استبان	٢
يَتَبَيَّن	٩	ببيانه	٢	يستبين	١
يُبَيّن ويُبَيّن	١٨	ليُبَيّن	٤		

واستعمل مصطلحاتٍ من الجذر (ب، د، ا) ، ومن ذلك قوله : ((وإمّا أن يَبْدُوَ لك أن تُضربَ عن مرورك بالرجل وتَجعلَ مكانه مرورَك بالحمار بعد ما كنتَ أردتَ غيْرَ ذلك)) . (١٦) ، وقوله : ((وأما المعرفة التي تكون بدلا من المعرفة، فهو كقولك: مررتُ بعبد الله زيد، إما غلطتَ فتداركتَ، وإما بدا لك أن تُضرِب عن مرورك بالأول وتجعله للآخر)) . (١٧) ، والجدول الآتي يوضّح ذلك :

اللفظ	عدد المرات
يبدو	٥
بدا	٣

ولا يخفى أنَّ استعمال هذه الألفاظ له إلماحاتٌ لطيفةٌ في أنَّ سيبويه يؤسس لنظريةٍ بيانيةٍ بلحاظ (بَيَّنا) اللفظ المشدد أي : المبالغة في التوضيح والإفهام .

٢ _ العناية بالسّماع :

لا جرمَ أنَّ سيبويه قد عُنِيَ بالسماعِ عن العرب بوصفهم يُمثِّلون المنظومة البيانية القولية الأولى الفصيحة، والمنبع الصافي للكلام الفصيح، وقد ظلَّ يعيش بعد القرن الثاني، وكان حجةً قويّةً في حسمِ الخلاف أمام الجدل اللغوي، وكنّا نسمع صدى هذا المذهب في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس الهجري . (١٨)

اهتَمَّ سيبويه بكلام العرب الفصيح المعتدِّ بِهِ والذي لا يمكن العدول عنه، وهذا الإتباع التقليديّ للعرب جعل سيبويه يستقري كلامَ العرب أيَّما استقراء؛ من أجل إعطاء كتابه المنزلة البيانيّة المقبولة التي أسَّسها وعِمادُها قول العرب، ، قال : ((ومن يقول من العرب: ما جاءتْ حاجتُك، كثيرٌ، كما يقول من كانتْ أمُّك. ولم يقولوا ما جاء حاجتَك كما قالوا مَنْ كان أمَّك، لأنّه بمنزلة المَثَل فألزموه التاءَ، كما اتفقوا على لعمر كان في اليمين. وزعم يونسُ أنه سمع رُؤبة يقول: ما جاءتْ حاجتُك؛ فيرفَع)).(١٩)

إنَّ هذا الارتكاز المُعجِب، والاستدلال المُدهش لكلام العرب كان إنذارًا، أو إعلانًا عن تأسيس نظريته البيانية، قال : ((وسمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به: اجتَمعتْ أهلُ اليمامِة؛ لأنَّه يقول في كلامه: اجتمعتِ اليمامةُ، يعني أهل اليمامة، فأنّث الفِعْلَ في اللفظ إذْ جعله في اللفظ لليمامة، فتركُ اللفظِ يكونُ على ما يكون عليه في سعة الكلام)) .(٢٠)

فلا تخفى الآليةُ البيانيةُ التي اعتمدها سيبويه في سماعه عن العرب مِمَّن يوثَقُ بعربيته، وهو مَلمَحٌ استدلاليٌّ دقيقٌ في كون التأسيس يجب أن يكون قائمًا على أسسٍ متقنةٍ، وركائزَ صُلبَةٍ، وهذا المَتحُ الخلّاقُ من كلامِ العرب كان هاجسَ اللغويينَ في الأخذِ من العرب الأقحاح، قال أبو زيد الأنصاري (ت٢١٥ ه) : ((وما أقولُ :(قالت العربُ) إلّا إذا سَمِعتُهُ مِن هؤلاء : بكر بن هوازن، وبني كلاب، وبني هلال، أو من عالية السافلة، أو سافلة العالية، وإلّا لم أقُل : قالت العربُ)) .(٢١)

نلحظُ أنَّ سيبويه بنى تفسيرَه لكثيرٍ من الظواهر الخاصة بالتخاطب على المعرفة بقوانين الخطاب التي استقاها من استقرائه الدائم، واهتمامه المستمر بكلام العرب، وملاطفة الواقع التداولي المنطوق، وتبدّى لنا أنَّهُ تمكَّنَ من وضع أسس نظريته البيانية

في ضوءِ كلام العرب المنظوم والمنثور، ويظهر اعتمادُه على الشاهد الشعري في مواطن كثيرة، منها قوله : ((وقالت ليلى الأَخْيَلِيّةُ:

لا تَقْرَبَنَّ الدَّهْرَ آل مطرفٍ إنْ ظالمًا أَبَدًا وإنْ مظلومَا (٢٢)

وقال ابن همّامٍ السَّلوليّ:

وأحضرتُ عُذْري، عليه السهو د، إن عاذِرًا لي وإن تاركا (٢٣)

فنَصبَهَ لأنَّه عنى الأميرَ المخاطَبَ. ولو قال: إنْ عاذرٌ لي وإنْ تاركٌ، يريد: إنْ كان لي في الناس عاذرٌ أو غيرُ عاذرٍ، جاز.

وقال النابغة الذُّبياني :

حَدِبَتْ عليّ بُطونُ ضِنَّةَ كلُّها إنْ ظالمًا فيهمْ وإنْ مظلومَا (٢٤)

ومن ذلك أيضاً قولك: مررتُ برجل صالحٍ)). (٢٥) وإلى جانب الشعر اعتمد سيبويه على الأمثال العربية، ووظفها لاستكمال نظريته التي عَمِلَ لبنائها بناءً محكَمًا وأرسى أسسها بشكلٍ مُتقن، بلحاظ قوله : ((كما جعلوا عَسَى بمنزلة كان في قولهم: " عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُساً "، ولا يقال: عَسَيْتَ أخانا)) . (٢٦) وقوله : ((وأما قوله: شيء ما جاءَ بك، فإنه يَحسُن وإن لم يكن على فعل مضمَرٍ، لأنّ فِيهِ معنى ما جاء بك إلا شيء. ومثلُه مَثَلٌ للعرب: " شرٌّ أهَرَّ ذا ناب ")) .(٢٧)

أشار سيبويه إلى أنَّ من أسس التعبير الصحيح والمقبول أنَّهُ كثيرٌ في كلام العرب، وأنَّ التلفّظ بالقول، وعدم التلفّظ به أساسه ومعياره كثرة الكلام، فكثرة الكلام وسعة استعماله تُبيحُ لسيبويه أن يحكم عليه بالصحة والقبول، وهو مُعطًى تفسيريٌّ بيانيٌّ في صحَّة الخطاب وسلامته، ومن ذلك قوله : ((وإذا قلت: أتوني إلا أن يكون زيدٌ فالرفع جيدٌ بالغ، وهو كثير في كلام العرب)) . (٢٨)

وقد رَصَدَ سيبويه الأثرَ الدلاليَّ الممدوحَ، والمُفضي إلى استظهار التواصل البيانيّ الفعّال، مُبيّنًا أنَّ التركيبَ الكلاميَّ الصحيحَ على الرغم من أنَّهُ مستقيمٌ نحويًّا إلّا أنَّ فسادَ دلالته يؤدي إلى الشلل التواصلي، والجمود الإبلاغي، ومِن ثَمَّ تقبيح بيانيته، وفساده، قال : ((ويحتمِلون قُبحَ الكلام حتَّى يضعوه في غير موضعه، لأنه مستقيم ليس فيه نقيض فمن ذلك قوله:

صَدَدْتِ فأطولتِ الصُّدودَ وقلَّما وصال على طُولِ الصُّدود يَدومُ

وإنما الكلام: وقلَّ ما يَدوم وصالٌ)) . (٢٩)

ونبَّه سيبويه على لزومِ استحضار البيان الصحيح المستقيم؛ لذا نراه يُعلِنُ أنَّ الاضطرار الذي يلجأُ إليه النحويون، حاولوا أن يجدوا له الوجهَ والتأويل، قال : ((وليس شيء يضطَرّون إليه إلا وهمْ يحاوِلون به وجهًا)) . (٣٠)

ونلحظ محاولةَ سيبويه في التخلص من قيد القاعدة النحوية التي جعلت النحويين يتقيّدون بها في استعمالاتهم، ومن هنا نراه يطلقُ عباراتٍ من نحو : يحاوِلون به وجهًا.

وأمّا ما رفضه العرب، فلا سبيل إلى قبوله عند سيبويه، لأنَّهُ غيرُ مقبولٍ عند العرب بسبب فسادٍ دلاليّ، أو خللٍ تركيبيّ فيصفه بالقبح، من ذلك قوله : ((وإنما قبُح عند العرب كراهيةَ أن يبدأ المتكلم في هذا الموضع بالأبعد قبل الأقرب، ولكن تقول أعطاك إياي، وأعطاه إياي، فهذا كلام العرب. وجعلوا إيَّا تقع هذا الموقع إذ قبُح هذا عندهم كما قالوا: إياك رأيتُ، وإياي رأيت، إذ لم يجز لهم ني رأيتَ ولا كَ رأيتُ)). (٣١)

وأشار سيبويه إلى كراهة بعض التعابير؛ لأنَّها تُحدِثُ اللبسَ ولا تؤدي الغرضَ المراد، قال : ((ولا يستقيم أن تُخبرَ المخاطَبَ عن المنكور، وليس هذا بالذي يَنْزِلُ به المخاطَبُ منزلتَك في المعرفة، فكرهوا أن يَقْرَبوا بابَ لَبْسٍ)) . (٣٢)

ونَعَتَ بعضَ التعابير بأنَّها (في ضعف من الكلام) ، قال : ((وفي ضعْفٍ من الكلام. حَمَلَهم على ذلك أنه فِعْلٌ بمنزلة ضَرَبَ)) . (٣٣) أو (على ضعف من الكلام) ، قال : ((وأنّه قد يُعلَم إذا ذكرتَ زيدًا وجعلته خبرًا أنه صاحبُ الصَّفة على ضعفٍ من الكلام)) . (٣٤)

وتطالعنا إشاراتٌ في مدونة سيبويه تدلُّ على رؤيته البيانية، ومن هذه الإشارات السكوت الجائز، قال : ((ولا يجوز لك أن تقول نعمَ ولا رُبّه وتسكت، لأنهم إنما بدأوا بالإضمار على شريطة التفسير، وإنما هو إضمار مقدم قبل الاسم، والإضمار الذي يجوز عليه السكوت نحو زيدٌ ضربتُه)) . (٣٥) والسكوت الحَسن، قال : ((كما أن كل مكان حسن لك أن تفصل فيه بين العامل والمعمول فيه بما يحسن عليه السكوت حسن لك أن تفصل فيه بينهما)) . (٣٦) والسكوت غير الجائز، قال : ((لأنه لا يجوز لك السكوت على أوّل الاسمين، فلا يجيء هذا إلاَّ على معنى أيهَّما، وتقديم الاسم ههنا أحسن)) . (٣٧) والسكوت القبيح، قال : ((بما يقبح عليه السكوت. وذلك قولك: إنَّ بها زيدًا مصابٌ)) . (٣٨)

ونترسَّمُ الترصيدَ الكلاميَّ البيانيَّ السيبويهيَّ في الكلام المُفيد الذي يُحسَنُ السكوت عليه؛ لأنَّهُ حَدُّ الكلام، والأخيرُ مصطلحٌ بيانيٌّ يكشفُ عن معياريةٍ بيانيةٍ استشرفها سيبويه، قال : ((واعلم أنه إذا وقع في هذا البابِ نكرةٌ ومعرفةٌ فالذي تَشْغَلُ به كان المعرفةُ، لأنه حدُّ الكلام)) . (٣٩)

ونلحظُ أنَّهُ يَصِفُ بعضَ التراكيب الضعيفة بالخبيثة، وهو مَلمَحٌ يكشفُ عن اشمئزاز سيبويه من التراكيب غير البيانية، لأنَّها تُفسِدُ المعنى، وتُخرِجهُ عن استقامته بَله انحرافه، قال سيبويه : ((وتقول: إنَّ أحدًا لا يقول ذاك، وهو ضعيف خبيث، لأنَّ أحدًا لا يستعمل في الواجب، وإنما نفيتَ بعد أن أوجبتَ، ولكنه قد احتُمل حيث كان معناه النفي، كما جاز في كلامهم: قد عرفتُ زيدٌ أبو مَن هو، حيث كان معناه أبو مَن زيدٌ. فمن أجاز هذا قال: إن أحدًا لا يقول هذا إلا زيدًا، كما أنه يقول على الجواز: رأيتُ أحدًا لا يقول ذاك إلا زيدًا، يصير هذا بمنزلة ما أعلمُ أن أحدًا يقول ذاك، كما صار هذا بمنزلة ما رأيتُ حيث دخله معنى النفي)) . (٤٠)

وفي ضوء ما تقدَّم نرتضي حقيقةً راسخةً من خلال معاينة المعالجات التفسيرية النحوية لسيبويه في مدونته البيانية التفسيرية هي أنَّ إصدار الحكم على التراكيب من جهةِ سلامتها، وصحتها، وجماليتها تارةً, وفسادها، وقُبحِها، وضعفها تارةً أخرى، يُعَدُّ

ملمَحًا معياريًّا بارزًا عنده، بل من أكثر المظاهر تجلّيًا في مدونته إذ نراه يستطرد في مواطن كثيرة للحكم على أشكالٍ من التراكيب تخرج عمّا هو فيه من حديثٍ ليستقصي أحكامَ الصحة والخطأ فيها مستندًا إلى ضوابطه التي تُمَثِّلُ صُلبَ النظرية البيانية الإعرابية .

٣ _ الأمثلة والشواهد البيانية :

إنَّ أهمَّ ما يميّز خطاب سيبويه في مدونته هو انطلاقه من الأمثلة المختلفة في المسائل الكثيرة التي عَرَضَها، وهذا دليلٌ على معرفته الواسعة بظواهر الاستعمال اللغوي عند العرب آنذاك، ومقاربته الواضحة للواقع التداولي الشفاهي، ونلحظ أنَّ سيبويه لا ينظر إلى الأمثلة التي يقدّمها بمَعزل عن الاستعمال اللغويّ، وإنَّما يقدّمها في سياقاتها، مُستقيًا في كثيرٍ منها من كلام العرب، وأراد بذلك أن يجعلها قوالبَ جاهزة لِمَن يأتي بعده، وتمكَّنَّ من أن يؤسسَ لنظريته البيانية في ضوء أمثلته التي تعددت وتنوّعت، من ذلك قوله : ((وإن سميت رجلا ضربوا فيمن قال: أكلوني البراغيث قلت: هذا ضربون)) . (٤١)

ومن ذلك قوله : ((وسمِعنا العربَ الموثوقَ بهم يقولون: التُّرابَ لك والعَجَب لك. فتفسيرُ نصبِ هذا كتفسيره حيث كان نكرةً، كأنّك قلت: حمدًا وعجبًا، ثم جئت ب(لَك) لتبيَّن مَنْ تَعني، ولم تَجعله مبنيًّا عليه فتبَتدئَهُ)) . (٤٢) ومن الأمثلة التي سمعها من العرب ونقلها كما هي ليبيّن للسامع دلالة استعمالها، قوله : ((سمعناهم يقولون: هذه ريح حرورٌ، وهذه ريحٌ شمالٌ، وهذه الريح الجنوب، وهذه ريح سمومٌ، وهذه ريحٌ جنوبٌ. سمعنا ذلك من فصحاء العرب، لا يعرفون غيره)) . (٤٣)

وأمثلة أخرى افترضها بصدد الشرح والتفسير وإفهام المخاطَب، وهي منسجمةٌ مع كلام العرب لا تحيدُ عنه، ويتجلّى هذا في قوله : ((وسألته: هل يكون إن تأتِنا تسألنا نُعطِك؟ فقال: هذا يجوز على غير أن يكون مثل الأول؛ لأنَّ الأولَ الفعلُ الآخِرُ تفسيرٌ له، وهو هو، والسُّؤال لا يكون الإتيانَ، ولكنَّه يجوز على الغلطِ والنِّسيانِ ثم يَتَداركُ كلامَه. ونظيرُ ذلك في الأسماء: مررتُ برجلٍ حِمارٍ، كأنه نَسي ثم تَداركَ كلامَه)) . (٤٤)

فهو يقدّم الأمثلةَ ثمَّ يوضّحها، ويقدّم أمثلةً تُزيدُها وضوحًا، وهذا دليلٌ على عمقِ درايته بظواهر التخاطب والمشافهة وما تقتضيه من استعمالاتٍ لغويةٍ، ومن الأمثلة التي افترضها، قوله : ((وتقول في هذا الباب: هذا ضاربُ زيدٍ وعمرو، إذا أَشركتَ بين الآخِر والأوّل في الجارّ؛ لأنه ليس في العربية شيء يَعْمَلُ في حرف فيَمتنع أن يُشْرَكَ بينه وبين مثلِه. وإن شئت نصبت على المعنى وتُضمِرُ له ناصِبًا، فتقولُ: هذا ضاربُ زيدٍ وعمرًا، كأنّه قال: ويَضرِبُ عمرًا، أو وضارِبٌ عمرًا)) . (٤٥)

المطلب الثاني : أركان الخطاب :

١ _ المتكلِّم :

يمثّل المتكلّم في كتاب سيبويه غايةً وهدفًا، إذ ينقلُ إلينا اللغةَ كما نطقها أصحابُها، وكثيرًا ما يعتمد سيبويه على المتكلّم في التقعيد النحويّ مراعيًا محيطَ المتكلّم الخارجيّ لتحليل النّصوص اللغوية وتفسير ظواهرها، وبإنعام النظر في الكتاب نلحظُ اهتمام مؤلِّفِه باستعمال المتكلّم وقصده، وبمراعاة حال المتكلّم وتوجيهه نحو الأمثل في استعمال التراكيب . (٤٦)

أكَّدَ سيبويه في مواضعَ كثيرةٍ في مدونته على اختيار المتكلّم وما تجيزُه له اللغةُ من إمكاناتٍ معنويةٍ متعددةٍ، وهذا يتّصلُ بسببٍ شديد الصّلةِ بمفهومِ الإعراب الذي يرتبط بحاجات المتكلّم وأغراضه، ونظام الإعراب إنَّما هو تغييرٌ واختلافٌ ناشئٌ عن عملياتٍ يولّدُها المتكلّمُ وتدور في نفسه وفكره ويُجَسّمها في أبنيةٍ تسمحُ بها اللغةُ، والمتكلّم يرومُ من كلامه القصدَ لكلّ جزءٍ من أجزاء التركيب يستندُ في ذلك إلى الاستعمال اللغويّ، وبما يتوافق وروح اللغة، والقصدِ الإبلاغيّ، ومادام المتكلّمُ مختارًا للألفاظ، فهو يختارُ ما يتلاءم مع حالته التي هو عليها، وما يسترسلُ في مِخياله من أفكارٍ مدفوعًا بعوامل منها : تفاعله مع المواقف ممّا يجعله يعمد إلى صيغةٍ دون أخرى، ولفظًا دون آخر، كذلك شعوره بضرورة الإيجاز، أو الاسترسال وفقًا للحال الراهنة .

فضلًا عن ذلك، فإنَّ المتكلّم يمتلك ناصيةَ العملية الكلامية التي يستطيع في ضوئها إيصالَ مراده إلى المخاطَب، ويؤثر فيه بما يرغب فيه من تنوّعٍ إعرابيّ _ رفعًا ونصبًا وجرًّا _ أو الاكتفاء ببعض أجزاء التركيب، وذكر بعضها الآخر، أو تقديم بعض أجزاء التركيب على بعض وسوى ذلك ممّا يخضع لسلطان المعنى والمقصد الكلاميّ الذي يريد إبلاغه للمخاطَب . (٤٧)

وقد فَطَنَ سيبويه إلى الأثر الإنجازي والتأثيري الذي يُحدثُه المتكلِّم، والفعل الكلامي الذي يُنجِزُهُ، وهي سُهمَةٌ مُبصِرَةٌ في الدرس التداولي المعاصر، وما بشَّرَت به التداوليةُ إلّا تجليات الفكر اللغوي القديم المتمثّل بتحليل سيبويه، وتفسيره للتراكيب العربية المختلفة، فالفعل (رأى) يردُ بمعنى الإبصار الحسّي (الرؤية الحقيقية) ، فيتعدّى إلى مفعولٍ واحد فقط، وإذا كان على معنى العلم الضمني يتعدّى إلى مفعولين، وفي هذا الصدد يقول سيبويه : ((وإن قلت رأيتُ فأردْتَ رؤيةَ العين، أو وجدتُ فأردْتَ وِجدانَ الضالة، فهو بمنزلة ضربتُ ولكنّك إنما تريد بوجدت عَلِمْتُ، وبرأيت ذلك أيضًا. ألا ترى أنَّه يجوز للأعمى أن يقول: رأيتُ زيدًا الصالحَ)) . (٤٨)

ويرى الدكتور نهاد الموسى أنَّ سيبويه يمتحِنُ الفعلَ (رأى) فيرى له عمقين دلاليين : فهو يأتي على معنى الإبصار الحسّي (رؤية العين) ، وعلى معنى العلم الضمني، ويرى له معنيين نحويين، ويفزعُ سيبويه في البيان عن فرق ما بين المعنيين إلى المجال الاجتماعي، ويُجرّد من معطياته موقفًا ساطعَ الدلالة هو موقف المتكلّم إذا كان أعمى، فيقول مُتسائلًا: ألا ترى أنَّهُ يجوزُ للأعمى أن يقولَ: رأيتُ زيدًا الصالحَ ؟.

ويكشفُ سيبويه عن اهتمامه بالمتكلّم الذي ينقلُ الكلمةَ من بابٍ نحويّ إلى بابٍ نحويّ آخر، ومن وظيفةٍ إلى أخرى داخل التركيب النحويّ الواحد، ((كانتقال الظرف إلى الإسمية، وانتقال المصدر إلى الظرفية، ويكون أمره فيما عامله واحدٌ، سواءٌ

بقيت علامتُهُ الإعرابية كالنصب ظرفًا ومفعولًا به، أم تحوَّلت علامتُهُ الإعرابية إثرَ تحوّل وظيفته النحوية كتحوّل المصدر من النيابة عن الفاعل رفعًا إلى الظرفية نصبًا)). (٤٩)

ومثال ذلك وظيفة (فوق) : ((تقول: رأيتُ متاعَك بعضُه فوقَ بعضٍ، إذا جعلتَ فوقًا في موضع الاسم المبنىّ على المبتدأ وجعلتَ الأوّل مبتدأ، كأنك قلت: رأيتُ متاعَك بعضُه أَحسنُ من بعض، ففوق في موضع أحسَنُ. وإن جعلتَه حالًا بمنزلة قولك: مررتُ بمتاعِكَ بعضِه مطروحًا وبعضِه مرفوعًا، نصبتَه لأنه لم تَبْنِ عليه شيئًا فتَبتدِئَه. وإن شئت قلت: رأيتُ متاعَكَ بعضَهُ أحسنَ من بعضٍ، فيكون بمنزلة قولك: رأيتُ بعضَ متاعِك الجيِّد، فوصلتَه إلى مفعولين لأنَّك أبدلت، فصرتَ كأنّك قلت: رأيتُ بعضَ متاعِكَ)) . (٥٠)

يُبيحُ سيبويه للمتكلّم في ظلّ نظريته أن ينتقي ما يشاء من المعاني في التركيب الواحد (٥١) والرَّسمةُ الآتية توضِّحُ ذلك :

جَعَلتُ متاعَكَ بعضَه فوقَ بعض

عَمِلتُ
ألقَيتُ متاعَكَ بعضَه فوقَ بعض.
صَيَّرتُ

ويكشف الدكتور علي بن موسى عن ثلاث وظائف للمتكلم أن يحمل الكلامَ عليها تعقيبًا على كلام سيبويه على الاسم (فوق) :

الأولى : أن ينصبَ (فوق) حالًا ويكون الفعل(جعل) بمنزلة الفعل (عَمِلَ) ، ويكون المعنى : عَمِلتُ متاعَكَ عاليًا، كأنَّكَ أصلحتَ بعضَه وهو عالٍ .

الثانية : أن ينصبَ (فوق) ظرفًا ويكون (جَعَلَ) بمعنى (ألقى) ، فينصب (فوق) على الظرفية، ويكون المعنى : أنَّكَ لم تعمل المتاع لإصلاحِ شيءٍ منه، وتأثّر فيه، وإنَّما ألقيتَ بعضَه فوقَ بعضٍ، وينتصب (بعضَه) في الجملتين على المعنيين بدلًا من (متاعك) .

الثالثة : أن ينصبَ (فوق) مفعولًا، ويكون (جَعَلَ) نظير (رأيتُ وصَيَّرتُ) فعلًا قلبيًا ناصبًا لمفعولين، أولهما: متاعك ، والثاني : فوق ، توسّعًا فيتعدّى (جعل) إلى المفعولين من جهة العمل والنقل من حالٍ إلى حال . (٥٢)

ويبدو لنا أنَّ سيبويه كان من القائلين بالنحو الوظيفي القائم على الاختيار الصائب للتراكيب المستقيمة التي تعمل أجزاؤها على الأداء الوظيفي المطلوب .

ومن أمثلة ذلك الفعل المضارع يُعرب رفعًا ونصبًا وجزمًا تبعًا لمراد المتكلّم، وهذا ما كشف عنه الرضيّ (ت٦٨٦ ه) ، قال : ((إذا أردنا أن نُبيّنَ متى يُرفعُ المضارعُ بعد (حتّى) ومتى يُنصَب؟ قُلنا ذاك إلى قصد المتكلّم)) . (٥٣)

وللنصب معانٍ أخرى كالسببيّة والمعيّة والغائيّة، وللرفع والجزم معانٍ أخرى كالإشراك والاستئناف، أو الجزاء، وجُلُّ ذاك التعدُّد تحكمه علاقاتٌ ويوجهها السياق دلاليًّا ويتخيَّرُ منها المتكلّمُ ما يُريد(٥٤) ، وتحدَّث سيبويه على نصب المضارع ورفعه بعد الفاء، قال : ((تقول: ما تأتيني فتحدّثَني، فالنصبُ على وجهين من المعاني: أحدُهما: ما تأتيني فكيفَ تُحدِّثُني، أي لو أتيتني لحدثتني. وأما الآخر: فما تأتيني أبدًا إلا لم تحدِّثني، أي منك إتيانٌ كثيرٌ ولا حديثٌ منك. وإن شئتَ أشركتَ بين الأول والآخر، فدخل الآخرُ فيما دخل فيه الأولُ فتقول: ما تأتيني فتحدِّثُني كأنك قلت: ما تأتيني وما تحدِّثُني، ... وإن شئتَ رفعتَ على وجهٍ آخر، كأنك قلت: فأنت تحدِّثُنا)) . (٥٥)

وللمتكلّم أن ينصبَ ويرفع، فالنّصب (فتحدِّثَني) من وجهين :

الأول : أن يكون الإتيان منفيًّا نفيًا مطلقًا، والحديث ممتنع من أجل عدم الإتيان، ولو وُجِدَ الإتيان لَوُجِدَ الحديث .

الثاني : أنَّ الإتيان منك حاصلٌ كثيرًا ولا حديثَ منك، فالإتيان المنفيّ هو الإتيان الذي معه حديث .

والرفع يجوز في (فتحدِّثُني) من وجهين :

الأول : على وجه عطف المفردات، والمعنى : أنَّكَ ما تأتيني وما تحدِّثُني، فالآخر شريكٌ للأول داخلٌ معه في النفي، ويكون النفي قد تناول الإتيانَ على حِدَةٍ، والحديث على حِدَةٍ، أي : ما تأتيني وما تحدِّثُني .

الثاني : نقدّره خبرًا عن مبتدأ محذوف، ويُقدّرُ الكلام في هذا بعطف جملةٍ مثبتةٍ على جملةٍ قبلها منفيّة، كأنَّ الكلام بتقدير : لا تأتيني ثُمَّ أنت تحدِّثُني الآن، فليس المجيءُ سببًا للحديث، ولا هو شرطٌ له، كما كان ذلك في حال النّصب . (٥٦)

إنَّ المقاصدَ والأغراض هي المحصّلُ النهائي من مراد المتكلّم الخاص من التركيب الذي ينشأه حذفًا وذكرًا، تقديمًا وتأخيرًا، مراعيًا فيه أحوال المخاطَب ومعرفته المسبقة بفحوى الكلام، وفي ضوء هذه الأغراض تظهر الوظيفةُ الإبلاغية للكلام ويرتبط النحو بسياقاته الاستعمالية . (٥٧)

وهذا ما صرَّح به ابنُ جني (ت٣٩٢ ه) ، قال : ((فأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره. وإنما قالوا: لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ أو باشتمال المعنى على اللفظ. وهذا واضح)) . (٥٨)

وكشف ابن خلدون (ت٨٠٨ ه) عن أهمية هذا الركن، وأنَّ اللغة هي تعبير المتكلّم عن مقاصده وأغراضه، قال : ((اعلم أنَّ اللغةَ في المتعارف هي عبارةُ المتكلِّم عن مقصوده)) . (٥٩)

٢ _ المخاطَب :

هو الطرفُ الآخرُ في الخطاب، والذي يقوم عند تلقّي الخطاب بتحليله وتفكيك رموزه وَفق ما يمتلكه من مخزونٍ لغويّ ومعجميّ، وأبعادٍ ثقافية واجتماعية، فيربط بين المكونات والرموز والإشارات، بعدها يفسّر ويؤوّل ويستنتج على مقصدِ إيجابية الخطاب، وهي تتوقف على مدى العلاقة التي تربط طرفي الخطاب. (٦٠)

ونلحظُ أنَّ سيبويه عند تأسيسه للنظرية البيانية النحوية، ووَضعِ قواعدِها قد راعى حال المخاطَب، وتمثَّلَ مبدأ الفَهم والإفهام، ومراعاة مقتضى الحال وعدم الإلباس ، (٦١) فهو يولي المخاطَبَ في مدونته جُلَّ عنايته، فيُنزل المخاطَبَ المنزلة التي يراها المتكلّم أنَّهُ في حالةِ استعدادٍ لتلقّي الخطاب، فالدائرة التواصلية الإبلاغية حاضرةٌ عنده . (٦٢)

ولم يُجز سيبويه أن يبدأ المتكلّمُ حديثَه بمنكورٍ لدى مخاطَبِه؛ لأنَّ ذلك سيؤدي إلى اللبس وعدم الإفهام، ويتجلّى هذا في قوله : ((ولا يستقيم أن تُخبِرَ المخاطَبَ عن المنكور، وليس هذا بالذي يَنْزِلُ به المخاطَبُ منزلتَك في المعرفة، فكرهوا أن يَقْرَبوا بابَ لَبْسٍ)) . (٦٣)

وهنا أوجبَ سيبويه على المتكلّم أن يراعي مسألة البيان، فيبدأ كلامَه بما هو معروفٌ عند المخاطَب، ثُمَّ يُخبرُ عنه بما يُريدُ توصيله إليه (٦٤) ، وهذا ما بَشَّرت به التداولية فيما بَعد، ولاسيَّما في بُعدِ الافتراض المُسبق في كون المخاطَب، والمتكلِّم عارِفينِ بالموضوع، من أجل نجاح التواصل واستمراره (٦٥)، قال : ((واعلم أنه إذا وقع في هذا البابِ نكرةٌ ومعرفةٌ فالذي تَشْغَلُ به كان المعرفةُ، لأنه حدُّ الكلام، لأنهما شيء واحد، وليس بمنزلة قولك: ضرب رجل زيدًا لأنهما شيئان مختلفانِ، وهما في كان بمنزلتهما في الابتداء إذا قلت عبد الله منطلق. تبتدئ بالأعرف ثم تَذكر الخبرَ، وذلك قولك: كان زيدٌ حليمًا، وكان حليمًا زيدٌ، لا عليك أقدمت أم أخَّرتَ، إلا أنه على ما وصفتُ لك في قولك: ضربَ زيدًا عبدُ الله. فإذا قلت: كان زيدٌ فقد ابتدأتَ بما هو معروف عنده مثلَه عندك فإنَّما ينتظر الخبر. فإذا قلت: حليمًا فقد أعلمتَه مثلَ ما علمتَ. فإذا قلتَ كان حليمًا فإنَّما ينتظِر أن تعرفه صاحب الصفة، فهو مبدوء به في الفعل وإنْ كان مؤخَّرًا في اللفظ. فإن قلتَ: كان حليم أو رجلٌ فقد بدأْتَ بنكرةٍ، ولا يستقيم أن تُخبِرَ المخاطَبَ عن المنكور)) . (٦٦)

وتبدّى لنا أنَّ التقديم والتأخير عند سيبويه مرهونٌ بالنظام اللغوي، وعلم المخاطَب، والابتعاد عن اللبس من جهة، ومن جهةٍ أخرى تتضح معرفة سيبويه العميقة بخصائص الكلام عند العرب في مختلف أحواله ومقاماته، من ذلك الابتداء بما هو معروف، وبناءً عليه يأتي ذكرُ الخبر وإعلام المخاطَب مثل ما يعلم به المتكلّمُ وعدم استقامة إخبار المخاطَب عن المنكور؛ لأنَّ ذلك لا يُنزِلهُ منزلةَ المتكلّم في المعرفة وبالتالي لا تتم الفائدة ويستحيلُ التبليغُ . (٦٧)

ونلحظُ عنايةَ سيبويه بالمخاطَب، فهو ركنٌ من أركان نظريته البيانية، ونجده يصرّحُ بذلك في مواطن كثيرة من مدونته، ففي معرض حديثه على علم المخاطَب وما يُخبَر به، قال : ((وسألت الخليل عن قوله جلَّ ذكره: " حتَّى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها " (سورة الزمر /٧٣) أين جوابها؟ وعن قوله جل وعلا: " ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب "(سورة البقرة / ١٦٥) ، " ولو يرى إذ وقفوا على النَّار " (سورة الأنعام / ٢٧) فقال: إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم، لعلم المخبر لأيّ شيءٍ وضع هذا الكلام)) . (٦٨)

ومن المعلوم أنَّ القرآن الكريم جاء موافقًا لسنن العرب، وسجيّتها في كلامها، ومساوقًا لأساليبهم، ومن هنا جاء تعليل الخليل الذي ذكره سيبويه، وهو علم المخاطب، ودلالة السياق على ذلك الحذف .

إنَّ هذا الحذف يُضفي على المعنى ظِلالًا يذهب بها ذهنُ السامع مذاهبَ شتّى، وينفرج عن معانٍ متعددة يحتملُها اللفظُ بالتفسير، أو التأويل بحسب مقتضى الحال وطبيعة المتلقّي كلٌّ بحسب معتقده وغاياته، والحذف في الآيات المباركة متروكٌ لفَهم المخاطَب ومدى كفايته في تقدير المحذوف، لقد كان سيبويه في تناوله للمحذوفات سبّاقًا إلى معرفة أغراض الحذف البلاغية، فالمتكلّم يلجأ إليه تارةً للتخفيف، وتارةً للإيجاز والاختصار، وتارةً للاكتفاء بعلمِ المخاطَب، وتارةً أخرى للاتّساع، وقد نَصَّ على وجوب توفُّر الدلائل الحالية، أو المقالية له لتؤدي دوره البلاغي في الفَهم والإفهام . (٦٩)

أقام سيبويه مفهومَ النظم وائتلاف الكلام في النظام اللغوي على مراد المتكلّم وعلم المخاطَب وفَهمه، وبَيَّنَ أنَّ الحكمَ بالصحة، أو الفساد يعودُ إلى وعي المخاطَب بالمراد، قال : ((فقولك: أتيتُك أمْسِ وسآتيك غداً)) . (٧٠) مستقيمة نظمًا ومعنًى، ومنسجمة مع فَهم المخاطَب، أمّا أن تقول : ((سآتيك أمس)) . (٧١) فمحال أن يكون ذلك لا في منطوقها، ولا في بنيتها العميقة، وإن كانت مستقيمة نظمًا، وتحديد ذاك منوطٌ بالمخاطَب، أمّا أن تقول : ((سوف أشرب ماء البحر أمس)) .(٧٢) فلا يقبلهُ المخاطَبُ لإحالته وكَذِبه، ومن هنا تتّضح عنايةُ سيبويه بفَهم المخاطَب بجعل مدارِ الكلام على تأليف العبارة وما فيها من حُسنٍ، أو قُبح، فوضع الألفاظِ في غير موضعها دليلٌ على قُبحِ النّظم وفساده، ويتمثَّل المخاطَبُ ذلك بحِسّهِ ويستشعرهُ بذوقِهِ . (٧٣)

وتبدّى لنا اهتمامَ سيبويه بالمخاطَب، وفَهمه المرادَ في ضوء نظريته البيانية في مواطن متعددة من مدونته، فذكر أنَّ المتكلّم يلجأُ إلى الحذف للاكتفاء بعلم المخاطَب، قال في باب يُحذف المستثنى فيه تخفيفًا : ((وذلك قولك: ليس غيرُ، وليس إلا، كأنه قال: ليس إلا ذاك وليس غير ذاك، ولكنهم حذفوا ذلك تخفيفا واكتفاءً بعلم المخاطَب وما يعني)) . (٧٤) وممّا يؤكّدُ ترك بعض الألفاظ في السياق التركيبي، قوله : ((ومما يقوّى تركَ نحوِ هذا لعلم المخاطَب، قولُه عزّ وجلّ: " والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات " (سورة الأحزاب /٣٥) فلم يُعْمِل الآخِرَ فيما عمل فيه الأوّلُ استغناءً عنه)) . (٧٥)

فالنظام اللغوي لا يُجيزُ للمتكلّم أن يلجأ للحذف، أو الذكر إلّا إذا عَلِمَ المخاطَبُ المرادَ من ذلك، ولا يُكتفى بعلم المتكلّم، بل لابُدَّ من علم المخاطَب في الوقت ذاته .

وربط سيبويه الإخبارَ عن النكرة بنكرة بعلم المخاطَب ، قال في تركيبي : (ما كان أحدٌ مثلَك، وما كان أحدٌ خيرًا منك) : ((وإنّما حَسُنَ الإخبارُ ههنا عن النكرة حيث أردت أن تَنفِيَ أنْ يكونَ في مثل حاله شيءٌ أو فوقه، ولأن المخاطَبَ قد يحتاج إلى أن تُعْلِمَهُ مثلَ هذا)) . (٧٦)

وبَيَّنَ سيبويه أنَّ الذكر والاستغناء مبنيٌّ على فَهم المخاطَب، وقدرته على معرفة صحة الخطاب، ومن هنا فإنَّ سيبويه قد حَكَمَ على الخطابات التي لا تتوافر فيها الصحة بآليات تحليلية تفسيرية نحوية تحكمُ على النَّص من نحو (القبح، والضعف، والفرار، وسواها) ويظهر هذا جليًّا في قوله : ((قبح أن تقول لا يَدَي بها لك، ولكن تقول: لا يَدَين بها لك، ولا أبَ يوم الجمعة لك، كأنك قلت: لا يدين بها ولا أبَ يوم الجمعة، ثم جعلت لك خبرًا، فرارًا من القبح. وكذلك إن لم تجعل لك خبرًا ولم تفصل بينهما، وجئت بلك بعد أن تضمر مكانًا وزمانًا كإضمارك إذا قلت: لا رجلَ. ولا بأس، وإن أظهرت فحسن. ثم تقول لك لتبين المنفي عنه، وربما تركتَها استغناء بعلم المخاطب)) . (٧٧)

وقوله : ((وهو في الوصف أمثلُ منه في الخبر وهو على ذلك ضعيفٌ)) . (٧٨)

وهذا يؤكّد لنا أنَّ نظمَ الكلام واتّساقه باكتماله تركيبًا، أو حذف بعضِ أجزائه مبنيٌّ على مدى فَهم المخاطَب لمؤدى الخِطاب .

٣ _ السياق :

هو الإطارُ العام الذي يُسهِمُ في ترجيح أدواتٍ بعينها واختيار آلياتٍ مناسبة لعملية الفَهم والإفهام بين طرفي الخطاب، وذلك في ضوء عددٍ من العناصر، فمن عناصره العلاقة بين المتخاطبين، والزمان والمكان اللذان يتلفّظ فيهما المتكلّم، وهذه تُسهِمُ مجتمعةً في عملية التعبير عن المقاصد . (٧٩)

ونلحظُ أنَّ سيبويه في تحليله لبعض الجمل يقبلها، أو يرفضها، أو يحكم عليها احتكامًا للسياق، وفي مدونته شواهد كثيرة قامت على مبدأ الجمع بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق، فهو ((يقفُ إلى تراكيب مخصوصة فيردّها إلى أنماطٍ لغويةٍ مقررة، ويقدّر ما يكون عَرَضَ لها من الوجهة اللغوية الخالصة من حذفٍ أو غيره، وَفق نظرية العامل، ولكنّه لا يقف عند ذلك، بل يتّسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تُستَعمل فيها وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطَب، وحال المتكلّم وموضع الكلام ... وقد هداه هذا الاتّساع إلى استكناه البنية الجوّانية للتركيب النحوي)) . (٨٠)

لقد أكَّدَ سيبويه معياري الحسن والقبح في التركيب اللغوي، واعطاهما بُعدًا قيميًّا، باستشراف السياق، وملاحظة التتابعات الكلامية، وقرائن الأحوال، وأعلى من شأن التلاؤم بين أجزاء التركيب لتحقيق مبدأ الإفهام (٨١) ، وإيصال الرسالة التبليغية، وهذا من أسس نظريته البيانية .

راعى سيبويه الأبعادَ الدلالية للجملة، واستنطق بناءَها الداخلي، وما يتضمنّهُ من أبعاد، فإلى جانب عنايته بالبنية السطحيّة نلحظُ عنايتَه بالبنية العميقة، ويتجسّدُ هذا بشكلٍ جليٍّ في مدونته، قال : ((يقول أتاني رجلٌ لا امرأةٌ فيقال: ما أتاك رجل، أي امرأة أتتْك. ويقول: أتاني اليومَ رجلٌ، أي في قوّته ونفاذه، فتقُول: ما أتاك رجلٌ، أي أتاك الضُّعفاءُ. فإذا قال: ما أتاك أحدٌ صار نفياً " عامّا " لهذا كلِّه)) . (٨٢)

فجملة (ما أتاك رجلٌ) تشيرُ إلى العدد، وتشيرُ إلى الجنس (ما أتاك رجلٌ ذكر بل امرأة) ، وتشير إلى الحالة (حالة الرجل) ، أي : ما أتاك رجلٌ قويٌّ بل ضعيف، فالسياق هو الذي يرشّحُها لهذا المعنى، أو ذاك . (٨٣)

ويرى الدكتور نهاد الموسى أنَّ كلمة (رجل) مرشّحةٌ لأن تخلص لشعبةٍ من شُعَبِ معناها الصرفيّ، وهي العدد، ومرشّحة لأن تخلص لشعبةٍ أخرى من شُعَبِ معناها الصرفيّ، وهي الجنس، ومرشّحة أيضًا لأن تخلص لأحد ظلال المعنى الدلاليّ، فالعامل الحاسم في التمييز، ونفي اللبس هو سياق الكلام والحال، وما يكتنفه من قرائن، كمعرفة المخاطَب بمقاصدِ المتكلّم . (٨٤)

وأدركَ سيبويه أنَّ الجملة جزءٌ من سياقٍ كلاميّ موصول، ونلحظُ أنَّهُ يتجاوز النظرَ إلى الجملة في ذاتها إلى ما حولها من عناصر السياق الكلاميّ، ونراه يعتَدَّ الموقفَ الكلاميّ كلًّا واحدًا، فيغتفر حذفَ أحدِ العناصر من الجملة إذا كان في سياقها الكلاميّ دليلٌ عليه (٨٥) ، قال : ((فأمّا الفعل الذى لا يَحسن إضمارُه فإنّه أَنْ تَنْتَهِي إلى رجل لم يكن في ذِكْرِ ضَرْبٍ ولم يَخطُر بباله، فتقول: زيدًا. فلا بدَّ له من أن تقول له: اضربْ زيدًا، وتقولَ له: قد ضربتَ زيدًا. أو يكون موضعًا يقبح أن يعرى من الفعل نحو أَنْ وقَدْ وما أشبه ذلك. وأمّا الموضعُ الذى يُضْمَرُ فيه وإظهارُه مستعمَلٌ، فنحوُ قولك: زيدًا، لرجلٍ في ذِكْرِ ضَرْبٍ، تريد: اضرب زيدًا)) . (٨٦)

وتطالعنا في مدونة سيبويه أمثلةٌ كثيرة يجمع بها بين التفسير اللغوي، وملاحظة السياق، قال في تفسير قولهم : (أَتَميمِيًّا مرّة وقَيْسِيًّا أُخْرَى) : ((وإنَّما هذا أنَّك رأيتَ رجلًا في حال تلون وتنقل، فقلت: أتميميًا مرّةً وقيسيًّا أُخْرَى، كأنك قلت: أتحول تميميًا مرة وقيسيًا أخرى. فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلوم وتنقُّلٍ، وليس يَسأله مسترشِدًا عن أمرٍ هو جاهلٌ به ليفهَّمَه إيّاه ويُخبِرَه عنه، ولكنه وبَّخه بذلك)) . (٨٧)

ونقل عن بعض العرب أنَّ رجلًا من بني أسد قال (يوم جبلة) واستقبله بعيرٌ أعور فتطيَّرَ منه : ((يا بنى أسد، أَعْوَرَ وذا نابٍ!)) فذهب سيبويه إلى أنَّ الرجل لم يسترشدهم ليخبروه عن عَوَرِهِ وصحته، ودليله في هذا سياق الجملة ، قال : ((لَم يرد أن يَسترشدهم ليُخبِروه عن عَوَرِه وصحّته، ولكنه نَبَّهَهم، كأنه قال: أَتَستقبلون أَعْوَرَ وذا ناب! فالاستقبالُ في حال تنبيهه إيّاهم كان واقعًا، كما كان التلوُّنُ والتنقُّلُ عندك ثابتين في الحال الأول، وأراد أن يثبت لهم الأعور ليحذوره)) . (٨٨)

ونظر سيبويه في قول العرب : (إذا كان غدٌ فأتني) ، ف(غد) عنده فاعل ل(كان) ولكنَّهُ وَجَدَ تميمًا تقول : (إذا كان غدًا فأتني) ففسّره على أنَّ المعنى أنَّهُ لَقِيَ رجلًا، فقال له : إذا كان ما نحنُ عليه من السلامة، أو كان ما نحنُ عليه من البلاءِ في (غدٍ) فأتني ولكنَّهم أضمروا استخفافًا (٨٩) ، فتأوّلهُ بإسقاط الفاعل لدلالة قرينة السياق عليه، وجعلَ (غدًا) ظرفًا .

وتبدّى لنا أنَّ سيبويه قد بلغَ من اعتبار موقف الاستعمال أن يَجعَلَهُ فيصلًا في الحكم على صحة التراكيب النحوية وخطئها، فنراه يقفُ إلى الجملةِ الواحدةِ، فيحكم عليها في موقفٍ من الاستعمال بأنَّها خطأ، وفي موقفٍ آخر من الاستعمال بأنَّها صواب،

وهذه الجملة لو اكتفى بالنظرة الشكلية، فهي جملةٌ نحويةٌ جائزة، ولكنَّ اللغةَ عنده تُستمدُّ من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي، كما تَستمدُّ من معطيات السياق التي تكتنفُ الاستعمالَ اللغوي . (٩٠)

المطلب الثالث : مفهوم الإعراب عند سيبويه :

الحركةُ الإعرابيةُ إجراءٌ شكليّ وظيفيّ، فهي تُثبتُ المعنى وتراقبه في البنية التركيبية وتنظِّم الكَلِمَ، والإعرابُ في نظرية سيبويه البيانية مرتبطٌ بالوظائف الدلالية (٩١) ، فالعنصر الوظيفي يأخذُ إعرابَه بالنظر إلى وظيفته لا إلى موقعه، فالفاعلُ يكون مرفوعًا سواءٌ تقدَّم، أو تأخَّر عن المفعول :

١ _ كَتَبَ محمّدٌ قصيدةً . ٢ _ كَتَبَ قصيدةً محمّدٌ .

فالمتكلّم لديه خياراتٌ متعددة ينطلقُ منها لتوجيه كلامه، وتحميله مضمونًا يريدُ إيصاله للمخاطَب، وهذا المضمون لا يستقيم بعنصرٍ واحدٍ؛ لأنَّ العلاقةَ الإسناديةَ علاقةٌ ثنائيةٌ تعكسُ عملية الاتصال بين طرفين؛ طَرَفٌ عالمٌ عارفٌ متكلّم، وطَرَفٌ جاهِلٌ غيرُ عارفٍ .

ونلحظُ أنَّ سيبويه لم يَصُبَّ اهتمامه على التراكيب ومباني الألفاظ، واختلافها باختلاف معانيها فحسب، بل انّ اهتمامه امتدَّ بانتحاءِ سمتِ كلام العرب، وما يستتبعه المقامُ ومقتضى الحال من تقديمٍ وتأخير، أو ذكرٍ وحذف، أو فصلٍ ووصل، أو قصرٍ وإطلاق، أو تعريفٍ وتنكير، ولا يقتصرُ على النحو الشكلي الذي يهتمُّ بأواخر الكلمات إعرابًا وبناءً . (٩٢)

وتبدّى لنا أنَّ سيبويه، ومنذُ اثني عشرَ قَرنًا قد استشرفَ في نظريته البيانية البُعدين الوظيفي والدلالي في وصفه لنحو العربية، ومزجَ بينهما مزجًا متناسبًا متكاملًا، وفي مدونته صِوَرٌ مُعجِبَةٌ من تجاوز الدائرة اللغوية إلى الالتفات إلى المعنى، وتنبهه إلى السياق وما يلابسه من ظروفٍ ومُتغيّراتٍ .

فالحركات الإعرابية ماهي إلّا دوالٌّ للوظائف التي ينتجها المتكلِّم، وهو مَلمَحٌ بيانيٌّ مُعجِبٌ فَطَنَ له سيبويه بمعنى أنَّهُ نَظَرَ إلى إرادةِ المتكلِّم ومقصده أولًا، ثُمَّ ما يترشَّحُ منهما ثانيًا، وهي الحركات الإعرابية، ومعيارُ سيبويه الذي أقامه للكلام مبنيٌّ على ملاحظة المعاني اللغوية وَفقَ معطيات العالم الخارجي، فقد قَسَّمَ الكلامَ إلى : مستقيم حَسن، ومُحال، ومستقيم كَذِب، ومستقيم قَبيح، وما هو مُحال كَذِب، فقد جَعَلَ من المحال قولك : أتيتُكَ غدًا وسآتيكَ أمسِ . (٩٣)

وذهب الدكتور نهاد الموسى إلى أنَّ سيبويه نَظَرَ إلى المسألةِ من وجهةٍ دلاليةٍ ذلك أنَّهُ جَعَلَ الإحالةَ في تَينِكَ الجملتين من قِبَل أنَّ أولّهما ينتقض بآخرهما، وهذا التفاتٌ صريحٌ إلى المعنى الدلالي لكلٍّ من (غدًا) و(أتى) في الجملة الأولى، و(أمسِ) و(آتي) في الجملة الثانية، فكأنَّهُ لاحَظَ أنَّ (غدًا) تُشيرُ إلى أحداثٍ تقعُ في الزمن المستقبل، ولاحَظَ أنَّ صيغَ الماضي من الفعل مثل (أتى) تُشيرُ إلى أحداثٍ تَقَعُ في الزمن الماضي، واحتكمَ إلى خبرته الحسّيّة في أنَّ الماضي لا يجري مع المستقبل، وهكذا جَعَلَ معطياتِ الواقع الخارجي مَلحَظًا في حكمه اللغوي . (٩٤)

وممّا يؤكِّدُ اعتدادَ سيبويه بالمَلحَظِ الدلالي _ وهو ركنٌ من أركانِ نظريته البيانية_ أنَّهُ جَعَلَ قولَكَ : حَمَلتُ الجَبَلَ وشَربتُ ماءَ البحرِ، ونحوه من الكلام مستقيمًا كَذِبًا، وهو يُريدُ بالاستقامةِ أنَّ هذا القول جارٍ على مقاييس النحو، فهو كقولك : حَمَلتُ الحَجَرَ وشَربتُ ماءِ الكأسِ . أمّا الكَذِبُ فقد استندَ فيه إلى المَلحَظِ الدلالي القائمِ على امتحانِ المعطياتِ الخارجية، ومواضعات الاجتماع حول الحدود الممكنة لعلاقة الانسان بهذه المعطيات . (٩٥)

ومن أمثلةِ عناية سيبويه بالوظائف الدلالية هو : ((أنْ تقولَ على قول السائل: كَمْ صِيدَ عليه؟ وكَمْ غيرُ ظَرْفٍ لما ذكرت لك من الاتّساع والإيجاز، فتقول: صِيدَ عليه يومانِ. وإنَّما المعنى صِيدَ عليه الوحشُ في يومين، ولكنّه اتَّسع واختَصر. ولذلك أيضاً وَضَعَ السائلُ كَم غيرَ ظرفٍ. ومن ذلك أن تقول: كم وُلِدَ له؟ فيقول: ستّون عاما. فالمعنى ولد له الأولاد ولد له الوَلَدُ سِتّينَ عاماً، ولكنَّه اتَّسع وأَوْجَزَ)) . (٩٦)

يرى الدكتور نهاد الموسى أنَّ قولنا : (صِيدَ عليهِ يومان) في بنائه البراني مطابقٌ لقولنا : (صِيدَ عليهِ غزالان) و (استُدرِكَ عليه مسألتان) و (أُخِذَ عليه أمران) وأنَّ العلاقةَ الشكلية بين (يومان) و(صِيدَ) هي علاقة النائب عن الفاعل بفعله المبني للمجهول، وذلك شأنُ قولِنا : (وُلِدَ لهُ ستونَ عامًا) ولكنَّ الأيامَ والأعوامَ حينَ نحتكِمُ إلى المواضعات الاجتماعية لا تُصاد ولا تُولَد إنَّما يُصادُ فيها ويُولَدُ فيها، فهي ظروفٌ، ومادامَ الذي يُصادُ ويُولَدُ مُتَعَيّنًا معروفًا بما تؤدّى إليه الخبرة الاجتماعية المعروفة فقد حُذِفَ .

إنَّ استئناسَ سيبويه بهذه الأضواء الخارجية هو الذي هداه إلى الفرق الدلالي بين تركيبين لهما شكلٌ خارجيٌّ واحدٌ مثل : صِيدَ عليه يومان، وصِيدَ عليه غزالان . (٩٧)

ولا يخفى التدبُّرُ السيبويهي للتراكيب العربيّة والسياقات الكلاميّة المختلفة، هذا التدبُّرُ القائم على الإحساس بترابط التراكيب، وتناسُقِها من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى تواشُجها، وتمازُجِها دَلالةً وموضوعًا ,

إنَّ تعانُقَ الوظيفتين التركيبية المستقيمة للخطابِ النحويّ العربي، والوظيفة الدلالية القصدية لهذا الخطاب هُوَ دَيدَنُ علماءِ العربية الذين ما انفكّوا يؤكّدون هاتين الوظيفتين .

ويبدو أنَّ الباحثين المُحدَثين بحاجةٍ إلى تفتيحِ هذه المسارات، وتكشيف الحقائق من أجل الوصول إلى المقاربات النافعةِ والناجعة .

أهم قطاف البحث :

١ _ إنَّ سيبويه أول مَن وضع نظرية التوصيل في اللغة (النظرية البيانية) والتي أقام أركانها بأسلوب علمي رصين (المتكلم ، المخاطب ، السياق ، رسالة ، اتصال ، شفرة) .

٢ _ النظرية البيانية هي نظرية توصيلية تهدف إلى البيان والوضوح، وتفسير المبهم وتوصيله إلى المتلقي بأيسر السبل .

٣ _ استعمل سيبويه الشفرة بدقةٍ متناهيةٍ، ولم يترك المرسَل إليه (المخاطب) ليُعاني في فكِّها، بل حرصَ كثيرًا على الترابط الذهني بينه وبين المتلقي .

٤ _ صاغ سيبويه الرسالة في تراكيب متنوعة منها ما هو مألوفٌ كثيرُ الاستعمال، ومنها ما صنعه بنفسه هدفه البيان في التوصيل .

٥ _ إنَّ النظرية البيانية التي أقامها سيبويه هي نظريةٌ عربيةٌ أصيلة اعتمد في تأسيسها على التراث العربي وسيلته إلى ذلك السماع من العرب . والحمدُ للهِ أولًا وآخرًا .